النسق الديني في الشعر الاندلسي ابن خفاجة انموذجا

م.م. انعام جبار عبد
جامعة ديالى كلية التربية للعلوم الانسانية
enaamjabbar٢@gmail.com

الملخص:

يهدف البحث الحالي الى التعرف على النسق الديني في الشعر الاندلسي ، اذ تبرز اهمية البحث في الوقوف على اهم مظاهر النسق الديني في الشعر الاندلسي، والذي يشكل نسقا قاراً في لاوعي الشخصيات، ولا وعي المجتمع بشكل عام . لكون النسق الديني يشكل حضوراً فعالاً في كتابات العديد من الشعراء، فهو يستلهم كتاباته من الثقافة والسياسة والدين. السائد في المجتمع. فالنسق الديني نظامٌ قارٌ في العمق الثقافي للمجتمع ويتجسد في الانتاج الادبي من خلال الأفعال، أو الاقوال التي تصدر عن الشخصيات او التي يقررها مؤلف العمل الادبي على لسان الشخصيات

وقد توصلت الباحثة الى مجموعة من النتائج الاتية :

١. يمثل النسق الديني نسقا ثابتًا في لا وعي الادباء بشكل عام, في الشعر او العملية السردية لشخصيات العمل الادبي التي تتحرك ضمن أطر وثقافة المجتمع الضامن لها.

٢. وظف ابن خفاجة النسق الديني في ديوانه الشعري بعد ان رصدها في حركة المجتمع من حوله فالنسق الديني يعد أهم المرتكزات التي تدور حولها الثوابت الفكرية لمعظم المجتمعات الانسانية.

الكلمات المفتاحية : النسق الديني ، الشعر الاندلسي ، ابن خفاجة .

The religious pattern in Andalusia poetry

Ibn Khafaja as a Model

Assistant teacher. Inaam Jabbar Abd
Diyala University, College of Education for Human Sciences

ABSTRACT

The current research aims to identify the religious pattern in Andalusia poetry, where the importance of the research is to identify the most important aspects of the religious pattern in Andalusia poetry, which constitutes a persistent pattern in the unconscious of the characters, and the awareness of society in general. Because the religious system is an active presence in the writings of many poets, he draws inspiration from his writings from culture, politics and religion. prevalent in society. The religious system is a permanent system in the cultural depth of society and is embodied in the narrative work through the actions, or the words that are issued by the characters or that the author throws on those characters.

The researcher reached a set of the following results:
1. The religious pattern represents a persistent pattern in the unconsciousness of the narrative personalities who move within the frameworks and culture of the guarantor society.
2. Ibn Khafajah employed the religious pattern in his collection of stories after monitoring it in the movement of the society around him. The religious pattern is the most important pillar around which the intellectual constants of most human societies revolve.
Keywords: Religious system, Andalusia poetry, Ibn Khafajah.

المقدمة

يمثل النسق الديني أهم المرتكزات التي تدور حولها الثوابت الفكرية والاجتماعية حيث تمثل التوجهات الدينية المحور الاساسي لأغلب سلوكيات أفراد المجتمع, لذا نجد أن معظم نشاطات الأفراد تقوم على مرتكزات الدين, وأن المجتمعات الإنسانية تمر بمراحل تاريخية يكون فيها الدين والإيديولوجية شيئا واحداً فيتوحد النسق الديني والإيديولوجي ويكون الفكر الموجه للفعل والسلوك ذا طابع ديني فلا نكاد نفصل بين ما هو من صميم المعتقد الديني وبين الافكار والمعتقدات والمبادئ الإيديولوجية في مجتمع معين. وقد ظل الدين بكل جوانبه مبحثاً يثير انشغالات الباحثين والمفكرين منذ القدم, حيث عكفوا على محاولة تفسيره وفهم عناصره وكشف بداياته ونشأته, ورصد ابعاده وحدوده, وبالرغم من ان المجتمعات الحديثة قد وقفت من الدين مواقف شتى, فإنه ظل يمتلك بقاءه ودوامه على هرم القضايا العامة والمسائل البارزة المطروحة في كل المجالات السياسية منها والعلمية والاقتصادية... وغيرها. وقد كان الدين في السابق المصدر الأساس للقانون, والذي هو وسيلة ضبط مهمة للمجتمع. فالقانون المصري وكذلك البابلي والهندي واليوناني كان ينظر إليها على انها من صنع الآلهة, وكان وما زال يستشار رجل الدين في أمور المجتمع السياسية والاجتماعية.

اهمية البحث

يعد النص اعادة إنتاج الأنساق الأيديولوجية، فلا يوجد نص يخلو من الايديولوجيا أو دون نسق فكري يرمي إليه. فالعديد من النصوص الثقافية عند انطلاقتها الأولى لم تكن عبثية بل تنطوي على انساق معينه يحاول الكاتب تمريرها للمتلقي، والشعر الاندلسي يحمل في طياته العديد من الافكار المهمة والحساسة ذات الطابع

الايديولوجي، التي تظهر من خلال انساق مضمرة داخل النص تخص الأفكار والمعتقدات والعقائد، والسياسة، والتيارات الدينية، والاجتماعية والثقافية المختلفة التي تسود في مجتمع معينة.

اذا سعت هذه الدراسة للوقوف على اهم مظاهر النسق الديني في الشعر الاندلسي، والذي يشكل نسقا قاراً في لاوعي الشخصيات، ولا وعي المجتمع بشكل عام . لكون النسق الديني يشكل حضوراً فعالاً في كتابات العديد من الشعراء، فهو يستلهم كتاباته من الثقافة والسياسة والدين. السائد في المجتمع. فالنسق الديني نظاماً قاراً في العمق الثقافي للمجتمع ويتجسد في العمل السردي من خلال الأفعال، أو الاقوال التي تصدر عن الشخصيات او التي يلقها المؤلف على تلك الشخصيات.

هدف البحث

التعرف على النسق الديني في الشعر الاندلسي.

اولا : النسق الديني

الإنسان كائن حي، اجتماعي بطبعه، يمارس في هذا الكون طقوسه وشعائره الدينية، التي تنظم علاقته بالكون، وتوفر له الضمانات الذهنية والنفسة تجاه المستقبل، والأرض العربية هي مهد الأنبياء والمرسلين، ومن المعلوم أن الدين يشغل مساحة كبيرة من حياة الأسرة العربية، "ولقد ظل الدين بكل جوانبه مبحثا يثير انشغال الباحثين والمفكرين منذ القديم، حيث عكفوا على محاولة تفسيره وفهم عناصره، وكشف بداياته ونشأته، ورصد أبعاده وحدوده. وبالرغم من أن المجتمعات الحديثة قد وقفت من الدين مواقف شتى، إلا أن بقاءه ودوامه على هرم القضايا الهامة والمسائل البارزة المطروحة في كل المجالات السياسية منها والعلمية والاقتصادية... ثبت مكانة الدين وأهميته في ماضي البشرية وحاضرها"(١).

وهذا يدعونا إلى بيان مفهوم الدين، وقد عرفه التهانوي بأنه: "وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إيّاه إلى الصّلاح في الحال والفلاح في المآل. وهذا يشتمل العقائد والأعمال، ويطلق على كل ملّة كل نبي، وقد يخصّ بالإسلام كما قال الله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ، ويضاف إلى الله تعالى لصدوره عنه وإلى النبي صلى الله عليه وسلم لظهوره منه وإلى الأمة لتدينهم وانقيادهم"(٢).

والقراءة الفاحصة لشعر ابن خفاجة تكشف عن المصادر المتنوعة لهذا الشعر، كالقرآن الكريم وغيره، مما جعل النسق الديني واضحاً جلياً فيه، وقد ذكر ابن خفاجة في شعره الدين صراحة، قال ابن خفاجة:

فطاول النجم منار الهدى وأحرز الدين معلى القداح[٣]

أحرز: حاز[٤]، جاءت كلمة الدين في البيت عامة، وذلك لتشمل الدين الإسلامي كله، فهي لا تخص جانباً واحداً من جوانب الدين، فهو يمدح صديقه الفقيه قاضي القضاة أبي أمية.

ومن كلام ابن خفاجة صراحة عن الدين قوله:

تنميهم الدنيا إلى صنهاجة والدين ينميهم إلى الأنصار[٥]

تحدث الشاعر عن الفرق بين الانتساب للدين، والانتساب في الدنيا، فهم في الدنيا نسبهم إلى الصناهجة، وهم من أوفر قبائل البربر، وهم "أكثر أهل الغرب لهذا العهد وما بعده لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر"[٦]، أما بالنسبة للانتساب الدين فهم أنصار الدين.

ويتضح من البيت أن المجتمع الأندلسي في زمن ابن خفاجة كان يعلي من شأن الانتساب إلى الدين، وأن الانتساب إلى الدين أعلى من الانتساب إلى القبيلة، أو العشيرة، ولهذا كان الفخر بالدين أفضل من الفخر بالأحساب والأنساب.

ومن حديث ابن خفاجة عن الدين قوله:

دن دين معتمل في الله مبتهل وعد من سر علم ثم مختزن[٧]

المعتمل: دائب نشيط[٨]، فالشاعر يحث على التدين، وأن يكون نشطاً في دينه، سواء في العبادة، أو غيرها، فلفظ الدين هنا لفظ عام يشمل الدين كله.

ومن خلال ما سبق يتضح أن ابن خفاجة تحدث عن الدين صراحة، ويستخلص منه أن الدين عند ابن خفاجة هو عامل وشامل لكل ما جاءت به الشريعة الإسلامية، وهو مجموعة من العقائد والأعمال، وقد جاء شعر ابن خفاجة بعدة أنساق دينية، وهي:

صورة الله في شعر ابن خفاجة:

لله نهر سال في بطحاء أشهى ورود من لمى الحسناء[٩]

الله عز وجل من القضايا العظيمة التي تهتم بها المجتمعات على مر العصور والدهور، وهي قضية مصيرية، حيث إن كل ما في الوجود لا غنى له عن الله تعالى، وقد تحدث ابن خفاجة عن الله تعالى من خلال حديثه عن النهر، ففي ظل وصفه للنهر بين أن الله تعالى هو مالك الكون، فالنهر له، وهو مالكه، وهو جزء من الأرض، والأرض جزء من الكون، مما يفضي إلى نتيجة أن الله هو خالق هذا الكون، ومالك ما فيه، كما قال تعالى: {**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ**}[المائدة: ١٧].

ومن صورة الله في المجتمع الأندلسي في عصر ابن خفاجة، علو شأن الإيمان بالله جل وعلا، وأن تحركات الإنسان وسكناته تكون لله جل وعلا، فيحب لله ويبغض لله، فقال:

أرسي به في الله طود سكينة وعدالة وامتد حبل رجاء

أبدا له في الله وجه بشاشة ووراء ستر الغيب عين بكاء(١٠)

فحتى البشاشة، والابتسامة في وجه الغير يحتسب القاضي على الله أجرها، قال تعالى: {**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**}[الأنعام: ١٦٣]،فكل معاملاته الاجتماعية لله تعالى، حتى الابتسامة في وجوه الآخرين.

وقال ابن خفاجة:

متقلب في الله بين بشاشة يندى الهشيم بها وبين مضاء(١١)

فكل ما هو فيه من نعم فمن الله تعالى.

ويصف ابن خفاجة صورة الله تعالى في المجتمع الأندلسي، وأن الله تعالى هو من بيده وحده غفران الذنوب، فقال:

وقلت وحب الدمى ذنبه ألا غفر الله ما أذنبنا(١٢)

فقد دعا الشاعر له بغفران الذنوب، وهذا اعتراف بأن الله من صفاته أنه الغفور، وأنه هو من يغفر الذنوب، وأن من أذنب عليه أن يتوب ويرجع إلى الله جل وعلا، وهذا يبين واقع المجتمع الأندلسي الديني، وأنه يسير في العقيدة وفق ما جاء به القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

وقال ابن خفاجة:

فلله قولي ما اهذبا ولله لفظي ما أعذبا

ولله در أخي سؤدد رسا هضبة وسرى كوكبا[١٣]

فلله قولي، ولله لفظي: تعجبٌ وتحضيضٌ[١٤]، وفي هذا تعظيم لله جل وعلا، وإذا أراد تعظيم الشيء نسبه إلى الله عز وجل، وإن كانت الأشياء كلها له تعالى وفي ملكته[١٥].

وقوله: لله در أخي كلمة تعجب واستعظام ومن عادتهم أن ينسبوا ما يعجبهم إلى الله سبحانه[١٦]، وفي هذا بيان للحالة الدينية للمجتمع الأندلسي، وأنه عصر يغلب عليه التدين، حتى شعرائهم في تعجبهم ينسبون كل شيء لله جل وعلا، وإذا أعجبوا بشيء أضافوه إلى الله.

وقال ابن خفاجة:

ولو أن غير الله كان أصابه لجاشت نفوس لا تفاد صعاب[١٧]

جاشت: هاج واضطربت[١٨]، وصعب الشيء صعوبة، أي أشتد[١٩]، والبيت يبين شيوع عقيدة القضاء والقدر، والإيمان بها في المجتمع الأندلسي في عصر ابن خفاجة، فهو يوضح أنه إذا كان الأمر من الله، رضخت له النفوس، وأذعنت له القلوب، بخلاف ما لو كان الأمر من عند غير الله تعالى، وفي هذا تقرير لعقيدة التوحيد الصافية النقية، والإيمان بالقضاء والقدر، وهذا يليق بذلك العصر، عصر المرابطين، الذين له دور كبير في نشر العقيدة بين الناس، وتعليم الناس أمور دينهم، فلقد أعلت دولة المرابطين من العلماء، وكان لهم بصماتهم في شتى مناحي الحياة الاجتماعية[٢٠].

والإيمان بالقدر هو الأصل السادس من أصول الإيمان، ففي حديث الإيمان:" فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ"[٢١].

قال ابن خفاجة:

لا والذي تجلى الكروب به وتنفرج الخطوب[٢٢]

يقسم ابن خفاجة بمفرج الخطوب، ومزيل الكروب، وهو الله جل وعلا، وفيه هذا بيان لعقيدة التوحيد الصافية التي سادت في ذلك المجتمع، فلا يحلفون بغير الله تعالى، ولا يقصدون غير الله في تفريج الكروب، فلن يذهب الغم والهم سوى الله تعالى، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

وتحدث ابن خفاجة عن صفات الله تعالى وأنه يعفو ويصفح، فالله عز وجل لو بلغت ذنوب الإنسان عنان السماء، ثم جاءه تائباً عفا الله عنه وصفح، قال ابن خفاجة:

وأشفق من موت الصبا ثم إنني لآمل أن الله يعفو ويصفح(٢٣)

ويتوالى حديث ابن خفاجة عن الله تعالى، وتصوره له، وأنه سبحانه هو الخالق، له القدرة المطلقة، فقال:

ألا نسخ الله القطار حجارة تصوب علينا والغمام غموما(٢٤)

القُطَار: هو القليل من الماء(٢٥)، فالله –عز وجل– قادر على أن يحول الماء حجارة، وهذا من قدرة الله المطلقة، فالبيت فيه إشارة إلى تصور أهل الأندلس عن الله تعالى، وأنهم مسلمون، موحدون، وليس ملحدين، فهم يؤمنون بأن الله على كل شيء قدير.

وقال خفاجة:

وهل أنت إلا رحمة الله تنكفي عذاباً على أهل المعاصي تنكفي(٢٦)

يمدح ابن خفاجة بهذا البيت القائد أبا إسحاق، بأنه رحمة من الله على عباده، ومع ذلك فهو عذاب على أهل المعاصي، فهو رحمة للطائعين، وعذاب على العاصين، وفي هذا إثبات لصفة الرحمة لله جل وعلا، قال تعالى: {**وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**} [آل عمران: ٣١]

ومن تصورات المجتمع الأندلسي لله تعالى، أنه المستحق للعبادة، وأنه لا يصح أن يكون الإنسان متذبذباً في عبادة ربه، وهو ما عبر عنه ابن خفاجة بقوله:

مؤدباً لو كان مستعبداً لم يعبد الله على حرف(٢٧)

وكأن ابن خفاجة يتمثل قول الله تعالى: {**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ**} [الحج: ١١]، أي "أنهم عبدوه على وجه الشك، لا على اليقين والتسليم لأمره"(٢٨).

فالإنسان في عبادته لله جل وعلا لا بد أن يكون موقناً، مسلماً لأمره، وهذه العبارة التي اقترضها لوصف الفرس تشير إلى ما الحالة الدينية المنتشرة في ذلك العصر.

ويصور ابن خفاجة الل جل وعلا بقوله:

كفى حكمة لله أنك صائر ترباً كما سواك قبل فعدلك

وإن شئت مرأى كيف كون ثانياً فدونك فانظر كيف كون أولك

فهل أنت في دار الفناء ممهد محلك في دار البقاء ومنزلك؟(٢٩)

فالله عز وجل في تصور هذا المجتمع هو الذي إليه المرجع والمصير، قال تعالى: **{ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير}** [آل عمران: ٢٨]، فكل الناس مرجعهم ومصيرهم بعد الموت إلى الله جل وعلا(٣٠).

كما أنه سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان فسواه فعدله، قال تعالى: **{الذي خلقك فسواك فعدلك }**[الانفطار: ٧]، فسوى أعضاءه بحسب الحاجة وعدلها في المماثلة لا تفضل يد على يد , ولا رجل على رجل(٣١).

ثم أرشدهم إلى الأدلة على وجود الله تعالى وقدرته، وأن الإنسان كي يعرف الله عليه أن ينظر إلى خلق الله من حوله، وكيف بدأ خلقها، وأن من قدر على الخلق قدر على الإعادة، فهو المبدئ المعيد، **{وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه}** [الروم: ٢٧]، بل إن إعادة الخلق أهون من مبدئه(٣٢).

ومن خلال تلك الأبيات ندرك تصور ابن خفاجة، والمجتمع الأندلسي عن الله تبارك وتعالى، وصورته في ذلك المجتمع، فهو سبحانه الخالق، وأنه يحيي الناس بعد موتهم، فيعيدهم أحياء مرة أخرى، وهذا من قدرة الله تعالى المطلقة، وهذا يدل على سلامة العقيدة وصحتها في ذلك العصر، وأنه عصر تشيع فيه العقيدة الصحيحة.

ثانيا : صورة الحياة الآخرة

الركن الخامس من أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر، وهو التصديق الجازم بإتيانه لا محالة، والعمل بموجب ذلك. ويدخل في ذلك الإيمان بأشراط الساعة وأماراتها التي تكون قبلها لا محالة. وبالموت وما بعده من فتنة القبر وعذابه ونعيمه وبالنفخ في الصور وخروج الخلائق من القبور وما في موقف القيامة من الأهوال والأفزاع وتفاصيل المحشر: نشر الصحف، ووضع الموازين، وبالصراط والحوض، والشفاعة وغيرها، وبالجنة ونعيمها الذي أعلاه النظر إلى وجه الله عز وجل، وبالنار وعذابها الذي أشده حجبهم عن ربهم عز وجل(٣٣).

وقد نقل ابن خفاجة موقفه وموقف المجتمع الأندلسي في ذلك العصر من عقيدة الدار الآخرة بجميع مراحلها، فقال:

ألا قصر كل بقاء ذهاب وعمران كل حياة خراب(٣٤)

بين ابن خفاجة إن كل شيء إلى زوال، وكل عمار إلى خراب، وأن هذه الحياة الدنيا تنتهي، وكل صائر إلى الدار الآخرة، وهذه العقيدة شيء مترسخ في نفوس أفراد المجتمع الأندلسي في ذلك العصر، فهذا الحياة الدنيا هي قنطرة الآخرة، وهي السفينة التي يركبها كل واحد منها ليصل إلى شاطئ الدار الآخر، وهو ما صوره ابن خفاجة بقوله:

وهل من سرور أو أمان لعاقل ومفضي عبور العابرين إلى الموت(٣٥)

فالعاقل الذي لا يغتر بأيام السرور في الدنيا، ولا يعطي لها الأمان ولا يركن إليها؛ لأنه حتماً سيعبر إلى الموت، في العاجل أو الآجل، وهو ما وضحه جليلاً بقوله:

تيقن أن الله أكرم جيرة فأزمع عن دار الحياة رحيلا(٣٦)

الإنسان بالموت ينتقل إلى جوار به، وأكرم به من جوار، فكل شارب كأس الموت؛ لننتقل من دار الدنيا، إلى دار البرزخ، وهو ما جاء صريحاً واضحاً في قوله:

وكل حياة إلى منتهى أجل ولكل حمام أجل(٣٧)

فكل حياة مصيرها إلى انتهاء، وكل أجل إلى نهاية، كما قال تعالى:{**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**} [آل عمران: ١٨٥]

ثم يصور ابن خفاجة تلك المشاهد في عرصات يوم القيامة، وهو جزء من الدار الآخرة، فقال:

وكل يدان بما كان دان فثم الجزاء وثم الحساب(٣٨)
فلا تجر كفك من مهرق بما لا يسر هناك الكتاب
فإنك يوماً مجازى به وإن يداً كتبته تراب
ولا خطة غير إحدى اثنتين إما نعيم وإما عذاب
فرحماك يا من عليه الحساب وزلفاك يا من إليه المآب(٣٩)

ينقل ابن خفاجة صورة اليوم الآخر في المجتمع الأندلسي في ذلك العصر، فبين أن يوم القيامة هو ذلك اليوم هو يوم الجزاء والحساب، يوم المجازاة على الأعمال، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال تعالى: {**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**}[الزلزلة: ٦-٨](٤٠).

وبعد الحساب الناس فريقان إما إلى الجنة وإما إلى النار، وفي هذا قال ابن خفاجة:

ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار(٤١)

لا تخشوا بعد ذا أن تخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار(٤٢)

قال بلال بن سعد: "يا أهل الخلود، يا أهل البقاء، إنكم لم تخلقوا للفناء، وإنما تنقلون من دار إلى دار، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في الجنة أو النار"(٤٣).

ومن خلال ما سبق يتضح أن ابن خفاجة نقل لنا صورة اليوم الآخر بمراحله، وتأصل هذه العقيدة الصحيحة في نفوس المجتمع في ذلك العصر، فالمجتمع يتصور، ويعتقد أن كل نفس ذائقة الموت، وأن الحياة الدنيا إلى فناء، وكل صائر إلى الدار الآخرة، وأن هناك يوم للحساب على الأعمال، فكل مرء يحاسب على عمله، ثم مصيره إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

ثالثا : صورة المجتمع الأندلسي حسب الدين

ومن الأنساق الدينية في شعر ابن خفاجة تقسيم المجتمع حسب العقيدة، فنقل ابن خفاجة في شعره حقيقة ذلك المجتمع وصورته في ذلك العصر، فقال:

فحمت حريم المسلمين مصارع تركت حريم المشركين مباحاً(٤٤)

فالمجتمع في ذلك العصر فريقان: فريق المسلمين، وهو شامل لجميع طوائف المسلمين، وفريق المشركين، ويشمل جميع من أشرك مع الله غيره.

كما بين ابن خفاجة أن المجتمع إما مسلم وإما كافر، فقال:

من معشر تدمي بهم يوم الوغى بيض الوجوه وأوجه الكفار(٤٥)

وبين طبقات المجتمع حسب الدين بتفصيل أكثر، وأن فيهم المسلمين، والمسحيين، وعبر عن ذلك بالمساجد والكنائس، فقال:

وتزهدوا حتى أصابوا فرصة في أخذ مال مساجد وكنائس(٤٦)

وقال ابن خفاجة:

ولم أر كالنفاق شكاة غر ولا كدم الوريد له دواء(٤٧)

بين الشاعر أن النفاق شر وخيم، والنفاق: "هو إظهار الدين وإبطال خلافه، وهو أخص من المعنى اللغوى من إظهار الدين، ثم إبطان ما يخالف الدين وذلك إما أن يكون فسقاً أو كفراً , فإذا أظهر الإيمان وأخفى التكذيب بأصوله، فهذا هو المنافق الذى توعده الله تعالى بالدرك الأسفل من النار، وإن كان الذى يخفيه غير الكفر بالله وكتابه ورسوله وإنما هو شيء من المعصية لله، فهو الذي فيه شعبة أو أكثر من شعب النفاق(٤٨).

ومن خلال ما سبق يتضح أن المجتمع الأندلسي باعتبار الدين: ينقسم الى عدة طبقات، فهناك مسلمون وكافرون، ومنافقون، فهو ثلاثة طبقات.

ومن الأنساق الدينية في شعر ابن خفاجة نسق القدر، فكل شيء في الكون يجري بقدر، وما قدره الله تعالى سيكون، قال الشاعر:

وهب بها يمضي فيفري كأنما شهاب بها ينقض أو قدر يجري(٤٩)

وما جاء في الحديث من القول بأن قدر الله جار لا محاله، هو ما جاء في الحديث "**فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ**، قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، قَالَ: **صَدَقْتَ**"(٥٠).

ومما سبق يتضح أن المجتمع الأندلسي يؤمن بالقضاء والقدر، ويعترف بأن مقاليد الأمور بيد الله جل وعلا، وكل شيء في الكون يجري بقدر، قال تعالى:{**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**} [القمر: ٤٩]

ومن الأنساق الدينية في شعر ابن خفاجة نسق الإيمان بوجود الشياطين وأن الله لما بعث نبيه حفظ خبر السماء منهم، فقال:

ورمى الحفاظ به شياطين العبدي فانقض في ليل الغبار شهابا(٥١)

فالشياطين خلق من خلق الله جل وعلا، وهم موجود، وقد حفظ الله جل وعلا السماء منهم بعد بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– عن استراق السمع(٥٢)، كما قال تعالى: {**فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا**} [الجن: ٩].

وأوضح في بيان رجم الشياطين قوله:

فلما تحولنا عفاريت شرة تحول شؤبوب السماء رجوما(٥٣)

ومن الأنساق الدينية في شعر ابن خفاجة **صورة الأنبياء:**

وقد نقل ابن خفاجة صورة بعض الأنبياء والمرسلين في المجتمع الأندلسي في عصره، وأنه مجتمع يؤمن المسلمون فيه بجميع الأنبياء والمرسلين، حيث إن الإيمان بالنبي – صلى الله عليه وسلم– يستلزم الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، حيث قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦]، هذه هي العقيدة التي تربوا عليها، وعلمها لهم علماؤهم، الذين نشروا الدين في ربوع الأندلس، وخلصوا ذلك المجتمع من البدع والخرافات.

قال ابن خفاجة:

وحسبي إذا ما أوجعتني كربة بمؤنس يعقوب ومنقذ يونس(٥٤)

يتحدث الشاعر عن الأنبياء والمرسلون، ويتضح من البيت أن المجتمع الأندلسي هو مجتمع يعظم الأنبياء والمرسلين، ولم لا، وقد عاش ابن خفاجة في عصر المرابطين، عصر نشر الدين بين الناس، وانتشار الثقافة الدينية، حيث عظم فيه السلاطين أهل العلم، ووضعوهم في مكانتهم التي يستحقونها، فنشروا العلم الصحيح بين الناس، وعلموا الناس أمور دينهم، ومن الأنبياء الذين تحدث عنهم ابن خفاجة بصورة مقتضبة نبي الله يونس، فقال:

وحسبي إذا ما أوجعتني كربة بمؤنس يعقوب ومنقذ يونس(٥٥)

فالله عز وجل آنس يعقوب عليه السلام، لما تركه أبناؤه، وأنقذ نبي الله يونس من بطن الحوت، قال تعالى: {**وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ**}[الأنبياء: ٨٧–٨٨].

رابعا : صورة نبي الله إبراهيم

قال ابن خفاجة:

فمن مثل إبراهيم والصبح أبلج ومن مثل إبراهيم والحق أصدع
إمام تدانى رأفة وسما به إلى المجد بيت طاول النجم أروع
تجلى ومن بطحاء مكة حنت إليه وللبيت الحرام تطلع(٥٦)

بين الشاعر أن نبي الله إبراهيم –عليه السلام– كان يصدع بالحق، ولا يخاف في الله لومة لائم، ومن مشاهد صدعه بالحق أنه أتى على الأصنام فحطمها(٥٧)، وقد تنقل من مكان إلى مكان، وتطلع إلى بناء بيت الله الحرام، فنباه، ورفع قواعده.

ومن الأنساق الدينية تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر، وأن الصغيرة تجر إلى الكبيرة، فقال ابن خفاجة:

إن الصغيرة قد تجر عظيمة وربما أودى بشاه بيدق(٥٨)

البيدق: قطعة الحجر الصغيرة، فبين الشاعر أن صغار الذنوب تجر إلى كبيرها، وأنها الصغائر قد تهلك صاحبها، كما قد تهلك الشاة بالحجر الصغير، وفي هذا يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: "**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ**"(٥٩).

من خلال ما سبق يتضح أن الإيمان بالأنبياء والمرسلين جزء من الحياة الدينية في المجتمع الأندلسي في عصر ابن خفاجة، وقد نقل ابن خفاجة صورة نبي الله يونس، وكيف نجاه الله من الحوت، وصورة نبي الله إبراهيم، وكيف كان يصدع بالحق.

نتائج البحث

١. يمثل النسق الديني نسقا قاراً في لا وعي الشخصيات السردية التي تتحرك ضمن أطر وثقافة المجتمع الضامن لها.

٢. وظف ابن خفاجة النسق الديني في ديوان شعري بعد ان رصدها في حركة المجتمع من حوله فالنسق الديني يعد أهم المرتكزات التي تدور حولها الثوابت الفكرية لمعظم المجتمعات الانسانية.

٣. لا تجد عملا من اعمال ابن خفاجة يخلو من الفكر الديني، فقد ناقش قضية البعد الجبري الانسان في مجموعته القصصية ووقوف الانسان عاجزاً امام ارادة الله. 4. تطرق ابن خفاجة لقضية البعد التقويضي الانسان، وذلك عندما حاول أن يرسم لنا شخصياته السردية وقد تخلت عنها القوة الالهية وبتعدت عنها لتتركها وترسم قدرها وتؤسس حياتها بنفسها، واظهر هذا البعد على أنه نسق وقار له تأثيره الواضح في شخصيات مجموعته القصصية .

٥. تناول في قصصه الموضوع الوجودي الذي شغل الانسان منذ بدء الخليفة إلا وهو (الموت) من خلال عبثية الأقدار التي تظهر الانسان وهو ضحية القدر عابث، أو قدر غير محكوم بمنطق، كما يظهر ذلك بالنسبة لبعض شخصيات قصصه.

الهوامش:

(١)مستويات الدين وأشكال التدين، فضيل حضري، مجلة الواحات للبحوث والدراسات،ع١١، ٢٠١م: ١٧٨.

(٢) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٩٩٦م: ٨١٤/١.

(٣) ديوان ابن خفاجة:٧١.

(٤)المحكم والمحيط الأعظم، علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م: ٢٢١/٣.

(٥) ديوان ابن خفاجة:١٠٢.

(٦) ديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، ٢٠١/٦.

(٧) ديوان ابن خفاجة:٢٣١.

(٨) شرح القصائِد العشر، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ)، إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٥٢هـ:٢٩٨.

(٩) ديوان ابن خفاجة:١٢.

(١٠) ديوان ابن خفاجة:١٥.

(١١) ديوان ابن خفاجة:٢٠.

(١٢) ديوان ابن خفاجة:٢٤.

(١٣) ديوان ابن خفاجة:٢٥.

(١٤)شرح ديوان الحماسة، أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (المتوفى: ٤٢١ هـ)، المحقق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ –

٢٠٠٣م:٥١٧،

(١٥) شرح ديوان الحماسة، للمرزوقي:٧٧٤.

(١٦)شرح ديوان الحماسة، يحيى بن علي بن محمد الشيبانيّ التبريزي، أبو زكريا (المتوفى: ٥٠٢هـ)، دار القلم – بيروت: ١٦٩/٢.

(١٧) ديوان ابن خفاجة:٤٤.

(١٨) تهذيب اللغة، الأزهري: ٩٣/١١.

(١٩)العين، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال: ٣١١/١.

(٢٠) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ)، المحقق: إحسان عباس، دار صادر– بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م: ١٩١/٣.

(٢١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، ١/ ٣٦، ح رقم: ٨.

(٢٢) ديوان ابن خفاجة:٥٥.

(٢٣) ديوان ابن خفاجة:٦٣.

(٢٤) ديوان ابن خفاجة:١٩٩.

(٢٥) انظر: المعجم الوسيط: ٧٤٤/٢.

(٢٦) ديوان ابن خفاجة:١٤٤.

(٢٧) ديوان ابن خفاجة:١٥٦.

(٢٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م: ٦٤/١.

(٢٩) ديوان ابن خفاجة: ١٧٣.

(٣٠) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري: ٣٢٠/٥.

(٣١) النكت والعيون، علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان: ٢٢٢/٦.

(٣٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري: ٤٨٦/١٨.

(٣٣) أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى: ١٣٧٧هـ)، تحقيق: حازم القاضي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد –

المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٢هـ :٥٥.

(٣٤) ديوان ابن خفاجة:٥٥.

(٣٥) ديوان ابن خفاجة:٥٧.

(٣٦) ديوان ابن خفاجة:١٩٢.

(٣٧) ديوان ابن خفاجة:١٩٢.

(٣٨) ديوان ابن خفاجة:٥٥.

(٣٩) ديوان ابن خفاجة:٥٦.

(٤٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م:٩٣٢.

(٤١) ديوان ابن خفاجة:١١٣.

(٤٢) ديوان ابن خفاجة:١١٣.

(٤٣) الزهد والرقائق لابن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: ١٨١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية – بيروت: ١٦٧/١.

(٤٤) ديوان ابن خفاجة:٦٨.

(٤٥) ديوان ابن خفاجة:١٠٢.

(٤٦) ديوان ابن خفاجة:١٣٨.

(٤٧) ديوان ابن خفاجة:١٥.

(٤٨) أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة دراسة تحليلية، القرآن, حسن عبدالله طه، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية, ٢٠٠٨م: ١٧٧.

(٤٩) ديوان ابن خفاجة:٩٥.

(٥٠) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة: ١/ ٣٦، ح رقم: ٨.

(٥١) ديوان ابن خفاجة:٣١.

(٥٢) نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، دارالكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ : ١٢٨/٣.

(٥٣) ديوان ان خفاجة:١٩٩.

(٥٤) ديوان ابن خفاجة:١٣٦.

(٥٥) ديوان ابن خفاجة:١٣٦.

(٥٦) ديوان ابن خفاجة:١٤٥.

(٥٧) النبي إبراهيم(عليه السلام)من مشارف الشك إلى مشارق اليقين، هادي حسن حمودي، دار الكتب العلمية:٢٥.

(٥٨) ديوان ابن خفاجة، ص١٦٩.

(٥٩) أخرجه أحمد في المسند، ٤٦٦/٣٧، ح رقم: ٢٢٨٠٨.

المصادر والمراجع

١. أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى: ١٣٧٧هـ)، تحقيق: حازم القاضي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٢هـ

٢. أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة دراسة تحليلية، القرآن, حسن عبدالله طه، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية, ٢٠٠٨م.

٣. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

٤. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م

٥. ديوان ابن خفاجة.شرحه وضبط نصوصه د.عمر فاروق الطباع,دار القلم للنشر والتوزيع, بيروت– لبنان,د.ط, د.ت.

٦. ديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، المحقق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
٧. الزهد والرقائق لابن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: ١٨١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية – بيروت
٨. شرح ديوان الحماسة، أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي الأصفهاني (المتوفى: ٤٢١ هـ)، المحقق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م
٩. العين، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال
١٠. المحكم والمحيط الأعظم، علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.
١١. مستويات الدين وأشكال التدين، فضيل حضري، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ع١١، ٢٠١١م.
١٢. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٩٩٦م.
١٣. النبي إبراهيم(عليه السلام) من مشارف الشك إلى مشارق اليقين، هادي حسن حمودي، دار الكتب العلمية،
١٤. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ)، المحقق: إحسان عباس، دار صادر– بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م

١٥. النكت والعيون، علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان

١٦. نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ